إعجاز القرآن في دلالة الفطرة على الإيمان

بقلم:

د. سعد بن علي بن محمد الشهراني

عضو هيئة التدريس بقسم العقيدة جامعة أم القرى
والمستشار برابطة العالم الإسلامي بمكة المكرمة

بحث مقدّم لمؤتمر إعجاز القرآن الكريم السابع الذي تقيمه
كلية الشريعة بجامعة الزرقاء الأهلية بالمملكة الأردنية الهاشمية
في الفترة ١٨- ٢٠/٧/١٤٢٦هـ الموافق ٢٣- ٢٥/٨/٢٠٠٥م

طباعة القطاني

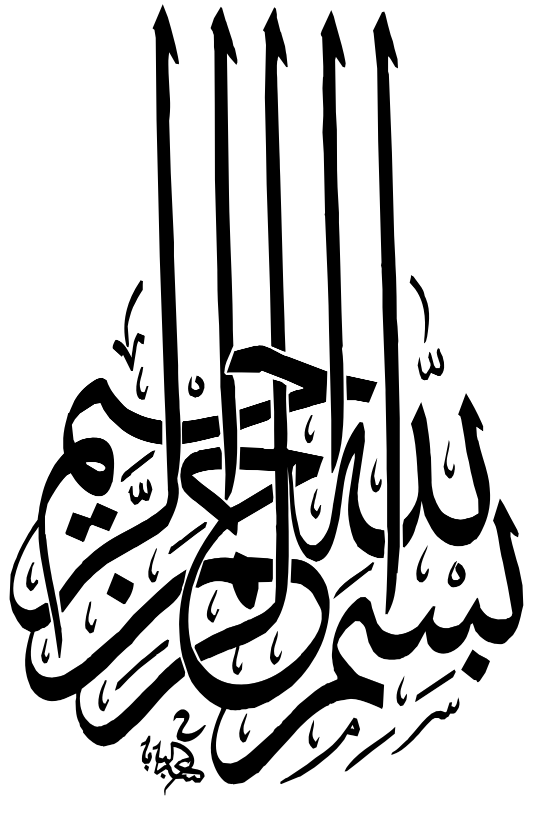
بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله فاطر السموات والأرض، فطر عباده على توحيده ومعرفته، وجعل لهم السمع والأبصار والأفئدة لعلهم يشكرون، والصلاة والسلام على من أرسله الله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون، أما بعد:-

لقد عظم الإسلام أمر الفطرة وأعلى شأنها، حيث وصف الله تعالى في القرآن الكريم الدين بها، وأمر باتباعها وحذّر العباد من تغييرها مبينًا أن اتباعها هو سلوك للدين الذي ارتضاه الله وجعل مستقيمًا قيِّمًا لجميع ما يحتاجه البشر في أمر دينهم ودنياهم، قال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [الروم:٣٠].

ومن تعظيم الإسلام للفطرة أنه جعلها الأساس السابق لأي دليل شرعي أو عقلي. فرسالة الرسل -عليهم الصلاة والسلام- وشرائعهم مكملة للفطرة ومذكرة بها، وهذا ما بينه الله ﷻ في كتابه الكريم في مواضع عدّة، منها قوله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾﴾ [الغاشية:٢١]، وقوله ﷻ: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾﴾ [ق:٣٧].

قال الإمام ابن تيمية ~ في هذا المعنى: « الرسل إنما تأتي بتذكير الفطرة ما هو معلوم لها، وتقويته وإمداده، ونفي المغير للفطرة، فالرسل بعثوا بتقرير الفطرة وتكميلها، لا بتغيير الفطرة وتحويلها، والكمال يحصل بالفطرة المكملة بالشرعة المنزلة »(١).

إن معرفة الله تعالى فطرية، والمراد بهذا أن كل إنسان يولد على صفة تقتضي إقراره بأن له خالقًا مدبرًا، وتستوجب معرفته إياه، وتألّهه له.

وهذه الصفة ذاتها هي القوة المغروزة في الإنسان، التي تقتضي اعتقاده للحق دون الباطل، وإرادته للنافع دون الضار، وإذا كان قد عُلم بالبراهين اليقينية القاطعة، أن وجود الخالق هو أعظم الحقائق، وأن معرفته والتألّه له أعظمُ المنافع، فإنه يتعين

---

(١) مجموع الفتاوى لابن تيمية: (١٦/ ٣٤٨).

بذلك أن يكون في الفطرة ما يقتضيه معرفة الصانع والإيمان به⁽¹⁾.

والقرآن الكريم كلام رب العالمين يجلي هذه الحقيقة ويقررها بأبدع البيان، وأوضح البرهان.

غير أنه مما يؤسف له إعراض بعض المسلمين عن هذه الحقائق الربانية، وإنكارهم لهذه المعرفة الفطرية.

فجماهير المتكلمين على اختلاف طوائفهم يقررون أن معرفة الله نظرية، وأنها إنما تدرك بالنظر والاستدلال، ويجعلون الطريق الوحيد إلى معرفته تعالى النظر، فأوجبوه على كل مكلف وجعلوا لهذا النظر طرقًا وأدلة كلامية وفلسفية صعبت على نظارهم فضلًا عن عامة المسلمين.

وقولهم يتناقض مع القول بفطرية معرفة الله، لأن المعارف الفطرية لا تحتاج إلى نظر واستدلال، وإنما تكون معلومة بالبداهة والفطرة.

إن حديث القرآن الكريم عن هذه المعرفة الفطرية كافٍ شافٍ شامل لحقيقتها وبيان المراد منها.

ولو رجعنا للقرآن الكريم بفهم سلفنا الصالح لوجدنا فيه غنية عن المناهج والمدارس الكلامية والفلسفية التي أشغلت المسلمين بمسائل لا تبني اليقين والإيمان بل تؤسس للشك والحيرة والاضطراب، ومما يؤسف له أن هذه المسائل والدلائل البدعية لا تزال تشغل حيزًا في مناهجنا التعليمية معرضة عن المنهج القرآني الرباني ذلكم الوحي المعصوم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

ولهذا أحببت المشاركة في مؤتمر (إعجاز القرآن الكريم) الذي تنظمه (كلية الشريعة بجامعة الزرقاء الأهلية) بهذا البحث المتواضع، والذي أزعم فيه بيان شيء من إعجاز القرآن التشريعي في جانب العقائد.

---

(1) انظر: درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية: (٨/ ٤٥٨)، وشفاء العليل لابن القيم: ص(٥٠٠).

شاكرًا للقائمين على هذا المؤتمر جهدهم المبارك في خدمة كتاب الله ﷻ وأخص منهم بالذكر الدكتور المفضال/ جمال أبو حسان، والذي دعاني لهذا المؤتمر حين لقاءنا بمؤتمر آخر بجامعة المنيا بمصر.

والله تعالى أسأل أن يجعل القرآن الكريم ربيع قلوبنا ونور صدورنا وجلاء همومنا وهادينا إلى الصراط المستقيم.

كتبه

سعد بن علي بن محمد الشهراني

المطلب الأول: الفطرة في لغة العرب

الفطرة في لغة العرب تطلق على معانٍ متعدّدة تدور حول: الشق، والخلقة، والابتداء، والاختراع، والخلق، والقبول.

وشواهد هذه المعاني متوافر في معاجم اللغة العربية(١)، وكتب غريب القرآن والحديث(٢).

كما يشهد لبعض معان الفطرة آيات كثيرة في القرآن الكريم.

فالفطرة بمعنى الشق، مثل قوله تعالى: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِن فَوۡقِهِنَّۚ﴾ [الشورى:٥].

والفطرة بمعنى الابتداء والاختراع والخلق، مثل قوله تعالى: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [فاطر:١].

وجاءت أيضًا بمعنى القبول في قوله تعالى: ﴿ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرُۢ بِهِۦۚ﴾ [المزمل:١٨]، فقوله: ﴿مُنفَطِرُۢ بِهِۦۚ﴾ إشارة إلى قبولها ما اقتضاه خلقه وإبداعه لها(٣).

أما كلمة "فطرة" على وزن "فِعْلة" فلم ترد في القرآن الكريم إلا مرة واحدة في سورة الروم في قوله تعالى: ﴿فِطۡرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيۡهَاۚ﴾ [الروم:٣].

ويذكر صاحب كتاب الفطرة(٤) إلى أن أحدًا لم يستعمل هذه الكلمة قبل ورودها في القرآن، واستدلّ بحادثة ابن عباس { مع الأعرابيان وفيه: "أنا فطرتها"، وذلك أن ابن عباس وهو حبر الأمة وهو العربي القرشي لم يعرف معنى هذه الكلمة من قبل

---

(١) انظر: مادة (ف ط ر) في كتاب العين للفراهيدي: (٧/ ٤١٧-٤١٨)، تهذيب اللغة للأزهري: (١٣/ ٣٢٥-٣٣٠)، الصحاح للجوهري: (٢/ ٧٨١)، لسان العرب: (٥/ ٥٥-٥٩).

(٢) انظر: المفردات في غريب القرآن للأصبهاني: ص(٥٧٥)، النهاية في غريب الحديث لابن الأثير: (٣/ ٤٥٧)، غريب الحديث لأبي عبيد: (٣/ ٢٩٩-٣٠٠).

(٣) انظر: المفردات في غريب القرآن للأصبهاني: ص(٥٧٥).

(٤) الفطرة للمطهري: ص(٥).

سماع الأعرابي، فدلّ ذلك على أن هذه الكلمة لم يسبق لها أن استعملت قبل القرآن الكريم، ويمكن الاعتراض عليه بقول عنترة:

وسيفي كالعقيقة وهو كمعي .:. سلاحي لا أفلّ ولا فطار

المطلب الثاني: أقوال علماء أهل السنة والجماعة في معنى الفطرة

تعددت أقوال العلماء في بيان معنى الفطرة، وسأجمل ذكر أبرز هذه الأقوال دون ذكر أدلتها ومناقشتها طلبًا للاختصار.

القول الأول: أنّ الفطرة هي الخلقة التي خلق عليها المولود من المعرفة بربه إذا بلغ مبلغ المعرفة، وهي السلامة من المعرفة والإنكار أو الكفر والإيمان.

وأبرز من نصر هذا القول ابن عبدالبر(١)، وبه قال ابن الأثير(٢)، وتقي الدين السبكي(٣)، وغيرهم من العلماء.

القول الثاني: الفطرة هي البداءة التي ابتدأ الله الخلق عليها من الحياة والموت والشقاء والسعادة، وكل ما سبق في علم الله مما يصيرون إليه عند البلوغ أو عند العاقبة(٤).

وممن قال بذلك من السلف: عبدالله بن المبارك(٥)، والإمام أحمد في إحدى الروايات عنه(٦).

القول الثالث: بأن الفطرة هي ما فطر الله عليه بني آدم من الإنكار والمعرفة والكفر والإيمان، وذلك حين أخذ من ذرية آدم الميثاق.

---

(١) انظر: التمهيد: (١٨/ ٦٨-٦٩)، وعقيدة الإمام ابن عبدالبر في التوحيد والإيمان، للغصن: ص(٤٢٦-٤٤٧).

(٢) النهاية في غريب الحديث: (٣/ ٤٥٧).

(٣) كل مولود يولد على الفطرة، للسبكي: ص(١٦).

(٤) انظر: التمهيد: (١٨/ ٧٨).

(٥) انظر: غريب الحديث لأبي عبيد: (٢/ ٢٢).

(٦) انظر: شفاء العليل لابن القيم: ص(٤٩٩)، وقد ذكر أن للإمام أحمد ثلاث روايات في الفطرة، لكن هذا القول قد تركه الإمام، انظر: درء التعارض: (٨/ ٣٨٩)، التمهيد: (١٨/ ٧٦).

ومن قال به: إسحاق بن راهويه، وصححه الأزهري(١).

القول الرابع: القول بأن الفطرة هي الميثاق، الذي أخذه الله تعالى من ذرية آدم قبل أن يخرجوا إلى الدنيا، فأقروا له جميعًا بالربوبية.

ونسب هذا القول إلى الأوزاعي، وحماد بن سلمة، وحماد بن زيد، وغيرهم(٢).

القول الخامس: وهو أن المراد بالفطرة: الإسلام.

وهذا الذي عليه أكثر الصحابة والتابعين، و غيره من علماء السلف، ومنهم:

معاذ بن جبل، وعمر بن الخطاب، وأبي هريرة، وابن عباس، والقاضي شريح، وسعيد بن جبير، وإبراهيم النخعي، ومجاهد، وعكرمة، والضحاك، والحسن البصري، والباقر، وقتادة، وابن شهاب، وجعفر الصادق، والأوزاعي، وحماد بن زيد(٣)، وأحمد بن حنبل، والبخاري(٤)، وابن جرير، وأبو بكر الخلال، وأصحاب أبي حنيفة، وابن حزم(٥)، والبيهقي(٦)، وابن تيمية(٧)، وابن القيم(٨)،

---

(١) انظر: التمهيد: (١٨/ ٨٣)، تهذيب اللغة للأزهري: (١٣/ ٣٢٨).

(٢) انظر: التمهيد: (١٨/ ٩٠-٩١)، تأويل مختلف الحديث لابن قتيبة: ص(٩٥).

(٣) انظر: تفسير ابن جرير: (١٠/ ١٨٣-١٨٤)، والدرء لابن تيمية: (٨/ ٣٦٧-٣٧٧)، والتمهيد لابن عبدالبر: (١٨/ ٧٢)، وأحكام أهل الملل للخلال: ص(١٤-١٥)، والنكت والعيون للماوردي: (٤/ ٣١٢)، وصحيح البخاري كتاب الجنائز: (١/ ٤٥٤).

(٤) انظر: صحيح البخاري، كتاب الجنائز، باب إذا أسلم الصبي فمات هل يصلى عليه: (١/ ٤٥٤)، وكتاب التفسير/ سورة الروم، باب لا تبديل لخلق الله: (٤/ ١٧٩٢)، تفسير ابن جرير: (١٠/ ١٨٣-١٨٤)، و الدرء لابن تيمية: (٨/ ٣٦٧-٣٧٧)، وأحكام أهل الملل للخلال: ص(١٤-٢٥).

(٥) انظر: الإحكام لابن حزم: (٥/ ١٠٤).

(٦) انظر: الاعتقاد للبيهقي: ص(١٠٧).

(٧) انظر: مؤلفاته مثل: درء التعارض: (٨/ ٣٥٩-٤٦٨)، ومجموع الفتاوى: (٤/ ٢٤٣-٢٤٩)، ومجموعة الرسائل الكبرى: (٢/ ٣٣٣-٣٤٩) و غيرها.

(٨) انظر: مؤلفاته: كشفاء العليل: ص(٤٨٦-٥٢٠)، وأحكام أهل الذمة: (٢/ ٥٢٣-٦٠٩) وغيرها.

وابن كثير(١)، وابن حجر(٢)، والشوكاني(٣)، وغيرهم.

ولا بدّ من تقرير أنه ليس المراد بقول السلف: ولد المولود على فطرة الإسلام: أنه حين خرج من بطن أمه يعلم هذا الدين ويريده، فإن الله تعالى يقول: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَـٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا﴾ [النحل:٧٨]، ولكن فطرته مقتضية موجبة لدين الإسلام، لمعرفته ومحبته.

فنفس فطرة المولود تستلزم الإقرار بالخالق ومحبته وإخلاص الدين له، وموجبات الفطرة ومقتضياته تحصل شيئًا بعد شيء بحسب كمال الفطرة إذا سلمت من المعارض(٤).

وستتضح أدلة رجحان هذا القول في بيان معنى الفطرة من خلال الأدلة التالية.

* * *

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير: (٦/ ٣٢٠-٣٢٣).

(٢) انظر: فتح الباري، لابن حجر: (٣/ ٢٩٤).

(٣) انظر: فتح القدير، للشوكاني: (٤/ ٢٢٤).

(٤) انظر: درء التعارض: (٨/ ٣٨٣-٣٨٤، ٤٦٠-٤٦١).

المطلب الثالث: حقيقة الفطرة من خلال الأدلة القرآنية

تقرر كثير من الأدلة الشرعية حقيقة معنى الفطرة وسأذكر أبرز وأجلى هذه الأدلة مركزًا على أدلة القرآن الكريم:

❖ **أولاً**:

قوله تعالى: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [الروم:٣٠].

وهذه الآية الكريمة تبين بكل مفرداتها على أن مقتضى الفطرة التي أمر الله تعالى بإقامة الوجه لها ولزومها هي الدين الحنيف الإسلام، وأن خلق الناس على هذا المقتضى سُنة مطردة لا تتبدل ولا تتغير.

وسأذكر فيما يلي تفسير مفردات هذه الآية الكريمة.

*قوله: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ ﴾: الفاء هي الفاء الفصيحة، وقد أفصحت عن شرط مقدر دخلت هي على جوابه والتقدير: إذا علمت أحوال المعرضين عن دلائل الحق، فأقم وجهك للدين، والمقصود من الأمر دوام القيام لا بدايته لأنه كان مقيمًا عليه وقت نزول الآية. وأقم من أقام العود، أو قوّمه إذا عدّله، والمراد الأمر بالإقبال على دين الإسلام والاستقامة والثبات عليه، و الاهتمام بترتيب أسبابه، على أن الكلام تمثيل لذلك، فإن مَنْ اهتم بشيء محسوس بالبصر عقد إليه طرفه وسدّد إليه نظره، وأقبل عليه بوجهه غير ملتفت عنه، وقيل إقامة الوجه للشيء كناية عن كمال الاهتمام به(١). وقيل: لأن إقامة الوجه تبع لإقبال القلب، ويترتب على الأمرين سعي البدن(٢).

قال ابن كثير ~ في تفسير هذه الآية: « فسدد وجهك واستمر على الدين الذي

---

(١) انظر: تفسير أبي السعود: (٧/ ٦٠)، روح المعاني للألوسي: (٢١/ ٣٩)، والإسلام فطرة الخلق وشريعة الوجود لمتولي: ص(١١).

(٢) تفسير السعدي: (٤/ ٨٥).

شرعه الله لك من الحنيفية ملّة إبراهيم الذي هداك لها وكملها له غاية الكمال، وأنت مع ذلك لازم فطرتك السليمة التي فطر الله الخلق عليها، فإنه تعالى فطر خلقه على معرفته وتوحيده وأنه لا إله غيره »(١).

*قوله: ﴿لِلدِّينِ﴾: المقصود به دينٌ معيّن فأل فيه للعهد، وهو دين الإسلام(٢).

*قوله: ﴿حَنِيفًا﴾: الحنف هو الميل، « وغلب استعمال هذا الوصف في الميل عن الباطل أي العدول عنه بالتوجه إلى الحق، أي عادلًا ومنقطعًا عن الشرك، كقوله تعالى: ﴿قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [البقرة:١٣٥] »(٣).

ومن الآيات التي تشهد أن الحنيفية هي الإسلام قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۗ﴾ [النساء:١٢٥]، وقوله: ﴿إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ﴾ [الأنعام:٧٩]، وقوله: ﴿قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ﴾ [الأنعام:١٦١].

ومن الأحاديث الدالة على ذلك أيضًا قوله ﷺ: "بعثت بالحنيفية السمحة"(٤).

*قوله: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ﴾: منصوبة بفعل مقدّر، أي اتبع أو الزم فطرة الله(٥)، وقيل: منصوبة على المصدرية التي دلّ عليها الفعل الأول "أقم" ومعناها: فطر الله الناس على ذلك فطرة، وعلى أيّ من التقديرين فإن إقامة الوجه للدين حنيفًا هو فطرة الله التي فطر الناس عليها، وذلك مأمور باتباعه إما صراحةً وإما تلميحًا، لأنها جاءت مضافة إلى الله إضافة مدح لا إضافة ذم، وفي هذا ما فيه من تشريفها وتوكيد تمامها

---

(١) تفسير ابن كثير: (٦/ ٣٢٠).

(٢) انظر: التحرير والتنوير لابن عاشور: (٢١/ ٨٩).

(٣) المصدر السابق: (٢١/ ٨٩).

(٤) أخرجه أحمد في مسنده برقم (٢٢٣٤٥، ٢٤٨٩٩، ٢٦٠٠٤)، والطبراني في الكبير برقم (٧٧١٥، ٧٨٦٨، ٧٨٨٣).

(٥) انظر: حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي: (٧/ ١٢١)، وقال بأن ذلك أصح الأقوال.

وكمالها وتمام الدين المعبّر بها عنه وكماله، وقد أمر نبيه بلزومها فعلم أنها الإسلام(١).

وقد جاء التنزيل بنحو هذا في قوله تعالى: ﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُۥ عَـٰبِدُونَ ١٣٨﴾ [البقرة:١٣٨]، قال مجاهد: « فطرة الله » (٢).

وقيل: بأن "فطرة الله" بدل من "حنيفًا" بدل اشتمال، فهو في معنى الحال من الدين وهو حال ثانية، وهذا يفيد أن هذا الدين مختص بوصفين هما: التبرؤ من الإشراك، وموافقة الفطرة(٣).

*قوله: ﴿فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾: بيان لمعنى الإضافة في قوله: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ﴾، وتصريح بأن الله خلق الناس سالمة عقولهم مما ينافي الفطرة، وكون الإسلام هو الفطرة وملازمة أحكامه لمقتضيات الفطرة صفة اختص بها الإسلام من بين سائر الأديان في تفاريعه أما أصوله فاشتركت فيها الأديان الإلهية(٤).

وقد ذكر ابن عبدالبر إجماع أهل التأويل من السلف على أن المراد بـ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ﴾ في الآية دين الإسلام(٥).

*قوله: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾: ذكر ابن كثير في تفسيره قولين هما:

١- أنه خبر بمعنى الطلب، ومعناه: لا تبدلوا خلق الله بإفساد الفطرة، فتغيروا الناس عن فطرتهم التي فطرهم الله عليها.

٢- أنه خبر على بابه، ومعناه: أن الله تعالى ساوى بين خلقه كلهم في الفطرة على

---

(١) انظر: الدرء لابن تيمية: (٨/ ٣٧٢)، وفتح الباري لابن حجر: (٣/ ٢٩٣)، وتفسير القرطبي: (١٤/ ٢٤)، والمحرر الوجيز لابن عطية: (١١/ ٤٥٣)، ومنهج الاستدلال عثمان حسن: (١/ ٢٠٠).

(٢) انظر: تفسير البغوي: (١/ ١٢١).

(٣) انظر: التحرير والتنوير لابن عاشور: (١/ ١٢١).

(٤) انظر: التحرير والتنوير لابن عاشور: (٢١/ ٩٠)، والمعرفة في الإسلام للقرني: ص(٢٣٢-٢٣٣).

(٥) انظر: التمهيد لابن عبدالبر: (١٨/ ٧٢)، وعقيدة الإمام ابن عبدالبر في التوحيد والإيمان، للغصن: ص(٤٢٨).

الجبلة المستقيمة، فلا يولد أحد إلا على ذلك، ولا تفاوت بين الناس في ذلك(١).

ولهذا قال ابن عباس، وإبراهيم النخعي، وسعيد بن جبير، ومجاهد، وعكرمة، وقتادة، والضحاك، وابن زيد، في قوله: ﴿لَا تَبۡدِيلَ لِخَلۡقِ ٱللَّهِۚ﴾ أي لدين الله(٢).

وقال البخاري: « قوله: ﴿لَا تَبۡدِيلَ لِخَلۡقِ ٱللَّهِۚ﴾: لدين الله، ﴿خُلُقُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾: دين الأولين. والفطرة الإسلام »(٣).

ولا تعارض بين القول بأن اللام في قوله: ﴿لَا تَبۡدِيلَ﴾ للنفي أو للنهي، فالنفي صحيح فلا يولد مولود إلا وهو على الفطرة لا يستطيع أحد أن يبدل ذلك، فيجعل بعضهم يولد على الفطرة، وبعضهم يولد على غير الفطرة، والنهي أيضًا صحيح فمعناه: لا تُغيّروا ولا تبدلوا دين الله وفطرته التي فطر الله الناس عليها.

*قوله: ﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ﴾ : اسم إشارة هنا يدل على زيادة تمييز هذا الدين مع تعظيمه كالإشارة في قوله: ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ﴾ [البقرة:٢]، والقيّم يعني: المستقيم الذي لا عوج فيه عن الاستقامة من الحنيفية إلى اليهودية والنصرانية، وغير ذلك من الضلالات والبدع المحدثة(٤).

-وبهذا يظهر أن الفطرة في الآية تقتضي التوحيد، ولو أن الله قد خلق الناس خلقة قد تقتضي التوحيد، وقد لا تقتضيه لم يأمر بلزوم مقتضاها بإطلاق. فدلّ على أن الفطرة لا بدّ أن تقتضي التوحيد، وأن ذلك سنة لا يمكن أن تتبدل، وهذا مطابق للعموم في حديث الفطرة في قول النبي ﷺ: « كل مولود يولد على الفطرة ».

ولذا أخبر تعالى أن الاستقامة على الدين الحنيف الذي هو مقتضى الفطرة هو الدين القيم. فلا يكون تحقيق التوحيد والدين القيم إلا بتحقيق مقتضى الفطرة(٥).

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير: (٦/ ٣٢٠).

(٢) انظر: تفسير ابن جرير: (١٠/ ١٨٣-١٨٤)، وتفسير ابن كثير: (٦/ ٣٢٠).

(٣) صحيح البخاري، كتاب التفسير/ سورة الروم، باب لا تبديل لخلق الله.

(٤) انظر: تفسير ابن جرير: (١٠/ ١٨٤)، والإسلام فطرة الخلق وشريعة الوجود لمتولي: ص(١٨).

(٥) المعرفة في الإسلام للقرني: ص(٢٣٣).

ثانياً:

آية الإشهاد وهي قوله تعالى في سورة الأعراف: ﴿وَإِذۡ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ وَأَشۡهَدَهُمۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَلَسۡتُ بِرَبِّكُمۡۖ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدۡنَآۚ أَن تَقُولُواْ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنۡ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ١٧٢ أَوۡ تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أَشۡرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبۡلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةٗ مِّنۢ بَعۡدِهِمۡۖ أَفَتُهۡلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلۡمُبۡطِلُونَ ١٧٣﴾ [الأعراف:١٧٢-١٧٣].

وهذه الآية آية مشكلة كما قال القرطبي⁽¹⁾ وأبو المظفر السمعاني⁽²⁾ والكلام في تفسيرها مرتبط بالروايات الواردة في الميثاق من حيث حقيقته وأقوال أهل العلم فيه⁽³⁾.

وقد اختلف أهل العلم في حقيقة استخراج ذرية آدم من صلبه إلى عدة أقوال:

القول الأول:

أن الله تعالى لما خلق آدم عليه السلام مسح على ظهره، فأخرج منه ذريته كأمثال الذر، فئة بيضاء نقية، وأخرى سوداء كالحمم، وهذا الإخراج كان لجميع الذريّة، وجعل لهم عقولًا يعقلون بها ما يعرض عليهم، ثم كلمهم الباري تعالى عيانًا، وأخذ عليهم العهد والميثاق بأنه ربهم المعبود، الذي لا إله غيره، وأنهم عبيده المربوبون، فأقروا بذلك، ووقعت الشهادة عليهم بذلك، قال تعالى: ﴿أَلَسۡتُ بِرَبِّكُمۡۖ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدۡنَآۚ﴾ الآية [الأعراف:١٧٢]. حيث كان إقرارهم له سبحانه وتعالى بلسان المقال.

وهذا هو مذهب جمهور الصحابة والتابعين وجمهور المفسرين، وعامة أهل الأثر والحديث، والصوفية.

ومن قال بذلك من الصحابة رضي الله عنهم: عمر بن الخطاب، وعليّ بن أبي طالب،

---

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن للقرطبي: (٧/ ٣١٤).

(٢) انظر: تفسير أبي المظفر: سورة الأعراف: ٤٠٥ .

(٣) انظر للتوسع في تخريج هذه المرويات ونقدها: أخذ الميثاق في قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمۡ﴾، لعبدالعزيز العثيم. وفطرية المعرفة وموقف المتكلمين منها، لأحمد سعد حمدان: ص(٣٤-١٣٥).

وأبي بن كعب، وعبدالله بن عباس، وعبدالله بن عمر، وأبو هريرة، وأبو سعيد الخدري، وأبو سريحة الغفاري، وعبدالله بن مسعود، وعبدالله بن عمرو بن العاص، وذو اللحية الكلابي، وعمران بن حصين، وأم المؤمنين عائشة، وأنس بن مالك، وسراقة بن جعشم، وأبو موسى الأشعري، وعبادة بن الصامت، وحذيفة بن اليمان، وزيد بن ثابت، وجابر بن عبدالله، وأبو ذر الغفاري، ومعاذ بن جبل، وهشام بن حكيم، وأبو عبدالله -رجل من الأنصار-، وعبدالله بن سلام، وسلمان الفارسي، وأبو الدرداء، وعمرو بن العاص، وعبدالله بن الزبير، وأبو أمامة الباهلي، وأبو الطفيل، وعبدالرحمن بن عوف -رضي الله تعالى عنهم أجمعين- .

وأما من بعدهم فمنهم: محمد بن كعب، والضحاك بن مزاحم، والحسن البصري، وقتادة، وسعيد بن جبير والسدي، والكلبي، وسعيد بن المسيب، وعكرمة، والطبري، والقرطبي، وفاطمة بنت الحسين، وأبو جعفر الباقر، وأبو حنيفة، والطحاوي، وابن الأنباري، وأبو جعفر النحاس، وابن الجوزي، وابن رشد، والألوسي، والشوكاني، والقنوجي، وملا علي قاري، والمغنيساوي، والخازن، وابن المنير، والثعالبي، وابن الوزير، وغيرهم كثير(١) -رحمهم الله تعالى أجمعين- .

وأدلة هذا القول كثيرة جدًا، حتى قال عنها ابن القيم ~ : « الآثار في إخراج الذرية من ظهر آدم، وحصولهم في القبضتين، كثيرة لا سبيل إلى ردها وإنكارها، ويكفي وصولها إلى التابعين، فكيف بالصحابة؟ ومثلها لا يقال بالرأي والتخمين »(٢).

وقد حكم بعض أهل العلم على هذه الروايات بالتواتر ومنهم:

المقبلي القائل: « ولا يبعد دعوى التواتر المعنوي في الأحاديث والروايات الواردة في ذلك »(٣).

---

(١) انظر: التفسير الكبير للرازي: (١٥/ ٤٦)، وروح المعاني للألوسي: (٩/ ١٠٣)، وفتح البيان للقنوجي: (٥/ ٧٠)، والتمهيد لابن عبدالبر: (١٨/ ٧٢)، وشفاء العليل لابن القيم: ص(٣٤-٣٥)، وفطرية المعرفة لحمدان: ص(١٠٥-١٠٦)، والسلسلة الصحيحة للألباني: (٤/ ١٥٩).

(٢) أحكام أهل الذمة لابن القيم: (٢/ ١٥٩-١٦٠).

(٣) فتح البيان للقنوجي: (٥/ ٧١).

وقال ابن عطية: « وتواترت الأحاديث في تفسير هذه الآية عن النبي ﷺ »(١).

وقال الألباني: « وجملة القول أن الحديث صحيح، بل هو متواتر المعنى »(٢).

وقال ابن رشد: غير مستنكر في لطيف قدرة الله تعالى أن يحييهم حينئذٍ، ويجعل لهم مع كونهم أمثال الذر عقولًا يعقلون بها خطابه، ويعلمون بها أنه ربهم وخالقهم، ويطلق ألسنتهم بالإقرار له بذلك(٣).

ومن الأدلة التي استشهدوا بها في إثبات وقوع هذا الاستخراج إضافة إلى الأحاديث الواردة في بيان معنى الآية ما يلي:

١) قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمۡ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٖ وَإِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۖ وَأَخَذۡنَا مِنۡهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظٗا ٧﴾ [الأحزاب:٧].

قال مجاهد: ﴿وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمۡ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٖ﴾ أي في ظهر آدم عليه السلام(٤). وقال ابن كثير: « وقيل المراد بهذا الميثاق الذي أخذ منهم حين أخرجوا في صورة الذر من صلب آدم عليه السلام »(٥).

٢) قوله تعالى: ﴿وَمَا وَجَدۡنَا لِأَكۡثَرِهِم مِّنۡ عَهۡدٖۖ وَإِن وَجَدۡنَآ أَكۡثَرَهُمۡ لَفَٰسِقِينَ ١٠٢﴾ [الأعراف:١٠٢].

قال أبي بن كعب ومجاهد في تفسير هذه الآية: عهده الذي أخذه من بني آدم في ظهر آدم ولم يفوا به(٦).

٣) قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَٰكُمۡ ثُمَّ صَوَّرۡنَٰكُمۡ ثُمَّ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ

---

(١) المحرر الوجيز لابن عطية: (٦/ ١٣٤).

(٢) السلسلة الصحيحة للألباني: (٤/ ١٦٢).

(٣) انظر: فتاوى ابن رشد: (١/ ٦٦١).

(٤) انظر: جامع البيان للطبري: (١٠/ ٢٦٢).

(٥) تفسير القرآن العظيم لابن كثير: (٦/ ٣٨٣).

(٦) انظر: جامع البيان للطبري: (٦/ ١٤).

فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ لَمۡ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿١١﴾ ﴾ [الأعراف:١١].

قال القرطبي: « وقيل المعنى: خلقناكم في ظهر آدم ثم صورناكم حيث أخذنا عليكم الميثاق هذا قول مجاهد رواه عنه ابن جريج وابن أبي نجيح. قال النحاس: وهذا أحسن الأقوال "ثم ذكر قول مجاهد" » (١).

وقال بهذا أيضًا: قتادة، والربيع، والضحاك(٢).

٤) قوله تعالى: ﴿وَلَهُۥٓ أَسۡلَمَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ طَوۡعٗا وَكَرۡهٗا﴾[آل عمران:٨٣].

فإنهم فسّروا إسلام الخلق كلهم بذلك، وقالوا: إن الله تعالى لمّا قال لهم: "ألست بربكم" قالوا كلهم "بلى" فأما أهل السعادة، فقالوا عن معرفة له طوعًا، وأما أهل الشقاوة فقالوه كرهًا (٣).

***القول الثاني:**

هو ما ذهب إليه بعض المفسرين ونصره -منهم خاصة- المنتسبون إلى التفسير بالرأي، وهو أن لا إخراج، ولا قول، ولا شهادة بالفعل، وإنما ذلك كله على سبيل المجاز، أو التمثيل، فيكون المراد بأخذ الميثاق أحد أمرين:

أ) ما فطرهم الله تعالى عليه من التوحيد، كما قال تعالى: ﴿ فِطۡرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيۡهَاۚ لَا تَبۡدِيلَ لِخَلۡقِ ٱللَّهِۚ ﴾ [الروم:٣٠]. وكما قال ﷺ : « ما من مولود إلا يولد على الفطرة ... » الحديث.

وقوله عليه السلام: « خلقت عبادي حنفاء كلهم، وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم » .

وقال بهذا القول طائفة من علماء السلف، كشيخ الإسلام ابن تيمية، وابن القيم، وابن كثير، وابن أبي العز الحنفي، والسعدي، وغيرهم -رحمهم الله تعالى أجمعين- .

---

(١) جامع أحكام القرآن للقرطبي: (٧/ ١٦٩). وانظر: معاني القرآن: (٣/ ١٣).

(٢) العواصم والقواصم لابن الوزير: (٧/ ٢٦٩).

(٣) انظر: التمهيد لابن عبدالبر: (١٨/ ٨٣)، والعواصم والقواصم لابن الوزير: (٧/ ٢٦٩).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية ~ : « وهذا الأخذ المعلوم المشهود الذي لا ريب فيه، هو أخذ المني من أصلاب الآباء ونزوله في أرحام الأمهات ... فهو يقول: اذكر حين أخذوا من أصلاب الآباء فخلقوا حين ولدوا على الفطرة مقرين بالخالق شاهدين على أنفسهم بأن الله ربهم، فهذا الإقرار حجة الله عليهم يوم القيامة، فهو يذكر أخذه لهم، وإشهاده إيّاهم على أنفسهم، إذ كان سبحانه خلق فسوى، وقدّر فهدى.

فالأخذ يتضمن خلقهم، والإشهاد يتضمن هداه لهم إلى هذا الإقرار »⁽¹⁾.

ب) أن المراد من أخذ الميثاق الأخذ من ظهور بني آدم على الترتيب الذي مضت به السنة، من لدن آدم إلى فناء العالم، ونصب الأدلة لهم في أنفسهم أو في الكون.

ومعنى ذلك أن الله ﷻ نصب هذه الدلائل، وأظهرها للعقول، لئلّا يقولوا إنما أشركنا على سبيل التقليد لآبائنا، لأن نصب أدلة التوحيد قائم معهم، فلا عذر لهم في الإعراض عنه، والإقبال على تقليد الآباء في الشرك.

قال الرازي حاكيًا هذا القول: « أخرج الذريّة -وهم الأولاد- من أصلاب آبائهم وذلك الإخراج: بأنهم كانوا نطفة، فأخرجها الله تعالى في أرحام الأمهات، وجعلها علقة، ثم مضغة ثم جعلها بشراً سويًّا، وخلقًا كاملًا، ثم أشهدهم على أنفسهم، بما ركب فيهم من دلائل وحدانيته، وعجائب خلقه، وغرائب صنعه، فبالإشهاد صاروا كأنهم قالوا: بلى، وإن لم يكن هناك قول باللسان، ولذلك نظائر منها:

قوله تعالى: ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾[فصلت:١١]⁽²⁾.

---

(١) الدرء لابن تيمية: (٨/ ٤٨٧). وانظر: جامع الرسائل والمسائل لابن تيمية: (١/ ١١)، وأحكام أهل الذمة لابن القيم: (٢/ ٥٢٧)، وتفسير ابن كثير: (٣/ ٥٠٦)، وشرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز: ص(٣٠٢)، وتفسير ابن سعدي: (٢/ ١٧٠).

(٢) التفسير الكبير للرازي: (١٥/ ٥٠).

وهذا النوع من المجاز والاستعارة مشهور في كلام العرب. فحين شهدت بهذه الأدلة عقولهم وبصائرهم صاروا بمنزلة من قيل لهم: ألست بربكم؟ قالوا: بلى. وهذه الشهادة منهم بالحال لا بالمقال. قال تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُواْ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ ﴾ الآية [التوبة:١٧]. وعلى هذا القول يكون معنى الآية الكريمة: وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم، ويشهدهم على أنفسهم بما ركب فيهم من العقل الذي يكون به الفهم والتكليف، الذي به يترتب على صاحبه الثواب والعقاب يوم القيامة(١).

وهذا القول هو مذهب المعتزلة كالزمخشري والقاضي عبدالجبار، ومن وافقهم من المفسرين كأبي السعود والزجاج وأبي حيّان والنسفي وغيرهم.

وكلا الأمرين -الفطرة أو نصب الأدلة- يشتركان في إنكار والإخراج من ظهر آدم والإشهاد بلسان المقال.

وقد انتقد الشيخ الألباني ابن كثير وابن القيم في قولهما بهذا القول ووصفهما بأنهما شابها المعطلة والمبتدعة في تأويل هذه الآية، وردّهم للأحاديث الواردة في الميثاق(٢).

ويمكن الجواب عن كلام الشيخ الألباني بأجوبة منها:

١) أن ابن القيم وابن كثير لم يردا الحديث، بل ذكروا عدم صحته بنقد سنده ولم يخرجا في ذلك عما قرره علماء الحديث في منهج النقد وعدم ثبوت الحديث كاف في رده. فهو لم يصح عندهما ومثل هذا لا يقال أنه رد للحديث.

---

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن للقرطبي: (٤/ ٣١٤)، والنكت للماوردي: (٢/ ٢٧٨)، والروح لابن القيم: (٢/ ٥٤٩-٥٥١)، وتفسير أبي المظفر السمعاني: ص(٤١٠)، وتفسير السعدي: (٢/ ١٧٠)، وتفسير القاسمي: (٧/ ٢٨٩٧)، والكشاف للزمخشري: (٢/ ١٧٧)، وروح المعاني للألوسي: (٩/ ١٠٢)، والبحر المحيط لأبي حيان: (٤/ ٤٢٠)، وتفسير النسفي: (٢/ ١٥٩)، وتفسير أبي السعود: (٣/ ٢٩٠)، والبسيط للواحدي: (٣/ ٩١٥-٩١٧)، وغيرها.

(٢) انظر: سلسلة الأحاديث الصحيحة: (٤/ ١٥٩-١٦٢).

٢) أنهما لم يؤولا الآية تأويلًا لا تحتمله وإنما ذكروا معنى تحتمله الآية.

٣) ابن القيم وابن كثير لم ينفردا بهذا الفهم وإنما قد سبقهما غيرهما ومن أشهرهم شيخ الإسلام ابن تيمية ~ والذي قد تقدم نقل بعض كلامه في الآية. ولعل الشيخ الألباني لم يقف عليه.

٤) أن موافقة بعض المبتدعة في بعض آرائهم لا يعني موافقتهم في بدعهم إذ أن أصل عقائدهم عقائد إسلامية فليس غريبًا أن تكون هناك موافقات بين ما ذهبوا إليه وما ذهب إليه علماء السلف، إذ الالتقاء في الجزئيات لا يعني الاتفاق في الكليات، كما أنه ليس كل ما يقول به المبتدعة يلزمنا أن نخالفه إلا إذا اتضح بطلانه بالدليل⁽¹⁾.

وبتأمل أقوال العلماء في آية الميثاق سواءً الذين قالوا بإخراج الذرية وتحقق الإشهاد بلسان المقال أو الذين أنكروا ذلك وقالوا: إنه بلسان الحال، نجد أنهم متفقون على دلالة الآية على فطرية التوحيد.

ووجه دلالة الآية على فطرية التوحيد وأن المعرفة به ضرورية أن الله تعالى قد أخبر بأنه قد أشهد جميع بني آدم على أنفسهم أنه هو ربهم، وأنهم قد أقروا وشهدوا جميعًا على أنفسهم بذلك، كما أخبر تعالى أن هذا الإشهاد حجة على الناس جميعًا، فلا يمكن لأحد يوم القيامة أن يعتذر بالجهل بالتوحيد، وأنه لم تبلغه فيه حجة، لأن الحجة فيه قد قامت على كل أحد بذلك الإشهاد، وأنه لا يمكن لأحد تبعًا لذلك أن يعتذر إذا كان قد وقع في الشرك بمتابعة الآباء عليه، لأن عنده من العلم بالتوحيد وبطلان ما عليه الآباء من الشرك ما يدفع به ذلك، بحيث لا يقع في الشرك إلا بإرادته واختياره، مع العلم ببطلان الشرك، لا لمجرّد متابعة الآباء عليه.

ويلزم من ذلك أن يكون العلم بتوحيد الله تعالى من المعارف الضرورية التي لا يحتاج أحد أن يتعلمها، بل يكون ذلك الإشهاد على التوحيد وإقراره به كافيًا في العلم

---

(١) هذه الأجوبة منقولة من: فطرية المعرفة وموقف المتكلمين منها، لشيخنا أ.د/ أحمد سعد حمدان: ص(١٣٧-١٣٨).

به وعدم الوقوع في الشرك(١).

وفي بيان وجه دلالة الآية على فطرية التوحيد وكونه من العلوم الضرورية يقول الإمام ابن تيمية: « ... هذا الإشهاد من لوازم الإنسان، فكل إنسان قد جعله الله مقرًا بربوبيته، شاهدًا على نفسه بأنه مخلوق والله خالقه، ولهذا جميع بني آدم مقرون بهذا شاهدون به على أنفسهم، وهذا أمر ضروريّ لهم لا ينفك عنه مخلوق، وهذا مما خلقوا عليه وجبلوا عليه، وجعل علمًا ضروريًا لهم لا يمكن أحدًا جحده.

ثم قال بعد ذلك: (أن تقولوا) أي: كراهة أن تقولوا، ولئلا تقولوا: ﴿إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ﴾ عن الإقرار لله بالربوبية، وعلى أنفسنا بالعبودية، فإنهم ما كانوا غافلين عن هذا، بل كان هذا من العلوم الضرورية اللازمة لهم التي لم يخل منها بشر قط.

... وقوله: ﴿أَوْ تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾﴾ وهم آباؤنا المشركون، وتعاقبنا بذنوب غيرنا؟ وذلك لأنه لو قدر أنهم لم يكونوا عارفين بأن الله ربهم، ووجدوا آباءهم مشركين وهم ذرية من بعدهم ... قالوا: نحن معذورون، وآباؤنا هم الذين أشركوا ونحن كنا ذرية لهم بعدهم، اتبعناهم بموجب الطبيعة المعتادة، ولم يكن عندنا ما يبين خطأهم.

فإذا كان في فطرتهم ما شهدوا به من أن الله وحده هو ربهم، كان معهم ما يبين بطلان هذا الشرك، وهو التوحيد الذي شهدوا به على أنفسهم، فإذا احتجوا بالعادة الطبيعية من اتباع الآباء كانت الحجة عليهم الفطرة الطبيعية العقلية السابقة لهذه العادة الأبوية »(٢).

❁ ثالثاً:

ما جاء في جواب الرسل للكفار لما قالوا لهم: ﴿إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٩﴾ ۞ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ﴾ [إبراهيم:٩-١٠].

---

(١) المعرفة في الإسلام للقرني: ص(٢٣٦).

(٢) درء التعارض، لابن تيمية: (٨/ ٤٨٨-٤٩١).

وقد ذكر الحافظ ابن كثير أن قول الرسل: ﴿أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ﴾ يحتمل أمرين:

الأول: أفي وجوده شك؟

الثاني: أفي تفرده باستحقاق العبادة دون غيره شك؟ (١)

ورغم أن السياق القرآني يدل على الثاني -لأن الشك متوجه فيه لمضمون دعوة الرسل، ومعلوم أن مضمون دعوتهم توحيد العبادة- إلا أن اللفظ يتناول الشك في الله تعالى من كل وجه، بما في ذلك الشك في وجوده، والعبرة بعموم اللفظ كما هو معروف(٢).

فيكون الرسل قد احتجّوا على الكفار بحجتين:

الأولى: الفطرة، فإن قولهم: ﴿أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ﴾: استفهام تقرير مفاده النفي(٣)، أي أن الله تعالى فوق الشك، وأن الشك في إلهيته مما تنكره الفطرة، وهذه الحجة داخلية، نابعة من نفس الإنسان.

والثانية: العقل، وذلك في قولهم: ﴿فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، فإن هذا استدلال بالخلق على الخالق، وهذه الحجة خارجية، مأخوذة من دلالة الأثر على المؤثر.

رابعاً:

ما ورد من ذكر استيقاظ الفطرة عند الشدائد، وظهور أثرها، وبروز مقتضاها على النفوس، من اللجوء بالدعاء إلى الله تعالى، والتوجّه إليه دون غيره بالاستغاثة، فهي تُقبل عليه إقبال العارف بمن يملك نجاته، كما في قوله تعالى: ﴿۞ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ﴾ [الزمر:٨]، وما في معناها من الآيات(٤) التي تنبه إلى عودة الناس عند الشدائد إلى مقتضى الفطرة التي فُطروا عليها، وهذا من أعظم

---

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم: (٢/ ٥٧٧).

(٢) انظر: الرسالة للشافعي: ص(٥١) فقرة (١٧٣) وما بعدها.

(٣) انظر: مجموع الفتاوى لابن تيمية: (١٦/ ٣٣٩).

(٤) انظر مثلًا: (الأنعام: ٤٠-٤١)، و(يونس:١٢-٢٢)، و(الإسراء:٦٧)، و(العنكبوت:٦٥)، و(الروم:٣٣)، و(فصلت:٥١).

الشواهد الحسية على وجود المعرفة الفطرية واستقرارها في النفس.

❁ خامساً:

استفهامات التقرير بالربوبية، نحو قوله تعالى: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾ أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٦٤﴾﴾ [الزمر:٦٠-٦٤].

فهذه الآيات وما شابهها تتضمن تقريرًا للناس بأمر تعرفه فطرهم، وهو ما غرسه الله فيها من معرفته⁽¹⁾.

❁ سادساً:

وقد دلّت السنة النبوية على ما دلّ عليه القرآن، ففي الصحيحين عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من مولود إلا يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه، كما تُنتج البهيمة جمعاء، هل تحسون فيها من جدعاء». ثم يقول أبو هريرة ﷺ: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ﴾ الآية (٢).

وروى مسلم بسنده عن عياض بن حمار أن رسول الله ﷺ قال -فيما يرويه عن ربه أنه قال-: «وإني خلقت عبادي حنفاء كلهم، وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم، وحرمت عليهم ما أحللت لهم، وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به

---

(١) انظر: دلائل التوحيد للقاسمي: ص(٢٥-٢٦).

(٢) أخرجه البخاري، كتاب الجنائز (١/ ٤٥٦) برقم (١٢٩٢). ومسلم، كتاب القدر، باب كل مولود يولد على الفطرة (٤/ ١٦٢٤) برقم (٢٦٥٨).

سلطانًا »(١).

فإن قيل: ألا يلزم من استقرار معرفة الله تعالى في الفطرة عدم وقوع إنكار الخالق؟ والحاصل أنه واقع بالفعل، فكيف اجتمع إنكاره مع كونه معروفًا بالفطرة؟

كما قد يقال أيضًا: إذا كانت معرفة الخالق والإقرار به ثابتًا في كل الفطر، فكيف ينكر ذلك كثير من النظار، والأصوليين، المشتغلين بإقامة الأدلة العقلية على المطالب الإلهية؟

والواقع أن الاعتراض بمثل هذا نابع عن فهم قاصر لمعنى كون الإنسان مفطورًا على الإسلام، ومخلوقًا على الحنيفية، إذ ليس المراد بهذا ما توهمه هذا المعترض، من أن الإنسان حين خرج من بطن أمه يعلم هذا الدين ويطلبه فعلًا، فإن الله تعالى يقول: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَـٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا﴾ [النحل:٧٨]، وإنما المراد: أن فطرته مقتضية موجبة لدين الإسلام، بمعنى أن نفس الفطرة تستلزم الإقرار بالخالق ومحبته والإخلاص له، وذلك يحصل شيئًا بعد شيء بحسب كمال الفطرة، إذا سلمت من المعارض(٢).

فمن أنكر الصانع إنما أنكره لفساد فطرته بطارئ ما، حال بينها وبين مقتضاها، فجاء التصريح في القرآن بأن الكفار في قرارة أنفسهم يعرفون الحق، وإن لم يذعنوا له، كما قال تعالى في شأن فرعون: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَـٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الإسراء:١٠٢]، وقال في أهل النار: ﴿بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا۟ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ﴾ [الأنعام:٢٨]، وقال عن كفار قريش: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَـٰكِنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام:٣٣].

بل إن نفس كلمة "كفر" مأخوذة من الستر والتغطية، وهذا أصل معناها في

---

(١) الصحيح، كتاب الجنة ...، باب الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار: (٤/ ١٧٤١) برقم (٢٨٦٥).

(٢) انظر: درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية: (٨/ ٣٨٣، ٣٨٤)، وشفاء العليل لابن القيم: ص(٤٧٩).

اللغة(١)، وأطلقت على الكافر؛ لأنه يستر ويغطي مقتضيات فطرته بحُجُب الشبهات والشهوات، فإذا زالت هذه الحجب بالحجج والبينات ظهرت مقتضيات الفطرة، كما حصل لسحرة فرعون، حيث قالوا: ﴿لَن نُّؤۡثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِي فَطَرَنَا﴾ [طه:٧٢]، فكان أسلوب القرآن في الاستدلال بالخلق على الخالق كثيرًا ما يأتي في صورة التذكير، لا في صورة إنشاء معرفة جديدة لم تكن مغروزة في النفس، وهذا هو شأن المعارف الأولية.

أما إنكار بعض النظار، أو كثير منهم لدلالة الفطرة، فإن أول من عُرف به في الإسلام هم أهل الكلام، الذي اتفق السلف على ذمه وتضليل أهله، ومع ذلك فإن إنكارهم لها لا يعني أبدًا انتفاءها لديهم؛ فإن الإنسان قد يقوم بنفسه من العلوم والإرادات وغيرها من الصفات ما لا يعلم أنه قائم بنفسه، وقيام الصفة بالنفس غيرُ شعور صاحبها بأنها قامت به، كما أن وجود الشيء في الإنسان غير علم الإنسان به، ومثال ذلك: صفات بدنه؛ فإن منها ما لا يراه مطلقًا، ومنها ما لا يراه إلا إذا تعمد، ومنها ما لا يراه لمانع في بصره، فكذلك صفات نفسه(٢).

ويذكر ابن تيمية ~ أن مما يبين ذلك أن الأفعال الاختيارية لا تُتصوّر إلا بإرادة تقوم بالفاعل، ويمتنع أن يفعلها وهو غير ناوٍ لها مريد، كالصلاة والصيام والحج والوضوء، ومع ذلك نجد كثيرًا من العلماء، فضلًا عن العامة، يستدعون النية بألفاظ يتكلفونها، ويشكون في وجودها مرة بعد مرة، حتى يخرجوا إلى ضرب من الوسوسة يشبه الجنون، وكذلك حب الله تعالى في قلب كل مؤمن، لا يندفع ذلك حتى يزول الإيمان بالكلية، ومع هذا فكثير من أهل الكلام أنكروا محبة الله، وقالوا: يمتنع أن يكون مُحبًا، أو محبوبًا، وجعلوا هذا من أصول الدين، فكذلك أنكروها، وقالوا: لا تحصل إلا بالنظر، كما قالوا في المحبة، ثم قد يكون ذلك الإنكار سببًا لامتناع معرفة ذلك في نفوسهم؛ فإن الفطرة قد تفسد وتزول، كما أنها قد تكون

---

(١) انظر: معجم مقاييس اللغة لابن فارس: (٥/ ١٩١).

(٢) انظر: مجموع الفتاوى لابن تيمية: (١٦/ ٣٤٠، ٣٤١).

موجودة ولا ترى(١).

وقد اعتذر بعض العلماء عن المتكلمين في موقفهم هذا من الفطرة؛ بأنهم إنما سلكوا طريق النظر مبالغة في تقرير الربوبية، وقطعًا لأطماع الملاحدة(٢).

وظاهرٌ أن هذا الاعتذار إنما هو في حق من أقرّ منهم بكفاية المعرفة الفطرية، أما من أنكر كفايتها فلا يصلح هذا الاعتذار له.

والمتكلمون مع تعويلهم التام على النظر العقلي في إثبات الربوبية لم يستطيعوا تجاهل شهادة الفطرة بها كلية، فتجد في كلام بعض أئمتهم من الاعتراف بها وتقرير حجيتها ما يخالف موقفهم العام منها.

فهذا الراغب الأصفهاني يقول: « معرفة الله تعالى العامية -أي الإجمالية- مركوزة في النفس، وهي معرفة كل أحد أنه مفعول، وأن له فاعلًا فعله، ونقله من الأحوال المختلفة »(٣).

وهذا الشهرستاني يصرح بشهادة الفطرة على وجود الله تعالى، ويفضل دلالتها على دلالة الحدوث والإمكان، فيقول:

« ما شهد به الحدوث، أو دلّ عليه الإمكان بعد تقديم المقدمات، دون ما شهدت به الفطرة الإنسانية من احتياج في ذاته إلى مدبر هو منتهى الحاجات، فيُرغب إليه ولا يرغب عنه، ويُفزع إليه في الشدايد والمهمات؛ فإن احتياج نفسه أوضح له من احتياج المكن الخارج إلى الواجب، والحادث إلى المحدث »(٤).

وهذا الفخر الرازي -أكثر المتكلمين إغراقًا في المعقولات- يذكر في تفسيره عند قوله تعالى: ﴿أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ﴾ وجوه دلالة الفطرة على وجود الله تعالى، فيذكر لطمة

---

(١) انظر: مجموع الفتاوى لابن تيمية: (١٦/ ٣٤١-٣٤٤).

(٢) ذكر هذا القاسمي عن القزويني كما في دلائل التوحيد: ص(٢٥)، ولم أعرف من القزويني هذا ولا كتابه الذي ينقل عنه القاسمي.

(٣) الذريعة إلى مكارم الشريعة: ص(١٩٩).

(٤) نهاية الإقدام في علم الكلام: ص(١٢٥).

الصبي، وما قال بعض العقلاء، من أنها تدلّ على وجود الصانع؛ لأن الصبي يصيح سائلًا عمن ضربه، فدلّ على أنه مفطور على أن كل حادث لا بدّ له من محدث، فإذا شهدت الفطرة بهذا فشهادتها بافتقار جميع الحوادث إلى الفاعل أولى.

ثم ذكر دلالة هذه اللطمة على التكليف ووجوب الجزاء ووجود الرسول.

وذكر ثانيًا شهادة الفطرة باستحالة حدوث دار منقوشة متقنة البناء محكمة التركيب، إلا بوجود نقاش عالم، وبانٍ حكيم، فمن باب أولى أن تشهد الفطرة بافتقار العالم إلى الفاعل المختار الحكيم، ثم ذكر ظهور مقتضى الفطرة عند الشدائد، وغير ذلك مما جعله وجوهًا لشهادة الفطرة بوجود الله تعالى (١).

بل وهذا الفيلسوف ابن رشد يقول بعد أن قرر دليلي الاختراع والعناية من القرآن على وجود الله تعالى: « فهذه الطريق هي الصراط المستقيم، التي دعا الله الناس منها إلى معرفة وجوده، ونبههم عليه بما جعل في فطرتهم من إدراك هذا المعنى، وإلى هذه الفطرة الأولى المغروزة في طباع البشر الإشارة بقوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ﴾ » (٢).

وقد نقل القاسمي عن القزويني أنه أقر بالمعرفة الفطرية، وأن أهل الكلام يعلمون أن شهادة الفطرة أقرب إلى الخلق، وأسرع تعقلًا من دلالة الإمكان والحدوث (٣).

وتؤكد الدراسات الحديثة هذه المعرفة الفطرية، فقد توصّل الباحثون الغربيون إلى وجود عقيدة الخالق العظيم عند سائر الأمم والشعوب في القديم والحديث، وأنّ وثنية تلك الأمم ما هي إلا أمرٌ طارئ على تلك العقيدة.

فقد وجد هؤلاء الباحثون عقيدة الإقرار بخالق عظيم موجودة عند القبائل الهمجية في أستراليا وأفريقيا وأمريكا، ووجدوها عند الأجناس الآرية القديمة وعند

---

(١) انظر: مفاتيح الغيب: (١٩/ ٩١-٩٣).

(٢) مناهج الأدلة: ص(٦٢).

(٣) انظر: دلائل التوحيد: ص(٢٤-٢٥).

الساميين قبل الإسلام، وعند قبائل البوشمان في جنوب أفريقيا، وعند الأقزام المنتشرين في أواسط أفريقيا الاستوائية وهم على درجة كبيرة من التخلف والهمجية ويعتقدون بوجود كائن أعلا يدعى "كانج" بمعنى السيد، ويسمى أيضًا "كوبة كاكانج تنج" بمعنى حامي الموجودات وهو عندهم يسكن السماء ولا يُرى وقادر على كل شيء، وعند قبائل "الهوتنتوت" الإفريقية ويسمونه "أبا الآباء"، وعند قبائل البانتو والهنود الحمر في الشمال الغربي للمحيط الهادي وفي أمريكا الجنوبية، وقد توصل هؤلاء الباحثون إلى أن فكرة -الإله الأعظم- توجد عند جميع الشعوب الذين يعدون من أقدم الأجناس الإنسانية(١).

ويقول ماكس موللر في كتابه "أصل الدين وارتقاؤه" من خلال « النصوص الدينية السنسكريتية، وهي أبعد الديانات عهدًا وأقدمها تاريخًا بأن الإنسان أول ما عَبَد عبد الخالق -جل وعلا- على صفته غير المحدودة، وأما هذه الأوثان والأصنام فليست إلا بنات الخيال استدعتها محبة الإنسان للمس كل ما يشعر به في نفسه »(٢).

لقد خلق الله النفس البشرية على مقتضى هذه الضرورة النفسية، بحيث لا يمكن أن تطمئن إلاّ بمعرفة الله ومحبته والتقرب إليه، وهذا دليل من واقع النفس البشرية يمكن لكل إنسان أن يدركه، ولهذا كان الأصل في كل إنسان وفي كل مجتمع هو السعي في طلب الطمأنينة الدينية تحت أي ظرف وفي كل زمان ومكان.

وقد جاء في معجم لاروس للقرن العشرين: « إن الغريزة الدينية مشتركة بين كل الأجناس البشرية، حتى أشدها همجية وأقربها إلى الحياة الحيوانية، وإن الاهتمام بالمعنى الإلهي وبما فوق الطبيعة هي إحدى النزعات العالمية الخالدة »(٣).

وتطالعنا حديثًا بعض الأبحاث الطبية التجريبية على مخ الإنسان لتؤكد وجود

---

(١) انظر: الدين، لدراز: ص(١٠٧-١٠٨)، والفطرة ووظائفها، لفرج: ص(١٤٢-١٤٧).

(٢) مجلة الأزهر، الجزء (٧)، المجلد (٩)، موضوع: العالم كله يتلمس دين الفطرة، لمحمد وجدي: ص(٤٣٤).

(٣) الدين: لدراز: ص(٨٣).

مناطق في المخ هي بمثابة مراكز للإيمان، فقبل الثورة في مجال العلوم التجريبية وتوفر الأدوات اللازمة حديثًا لم يكن الإنسان على معرفة بآلية الوظائف العقلية العليا التي تميز الإنسان وتحديد مواقعها بالمخ، وشيئًا فشيئًا اكتشفت المناطق المتعلقة بالحواس والكلام والحركة، وبدأت تتضح معالم المنظومة العاطفية ومنظومة الأنشطة اللاإرادية والأساس الكيميائي والكهربي للنشاط العصبي، وأصبح في الإمكان تسجيل كهربية المخ من الخارج لتمييز مختلف الأنشطة الذهنية والتصوير الإشعاعي لتراكيبه، وعرفت بعض الفوارق التشريحية والوظيفية مع الحيوان، وأمكن تصور آلية بعض الوظائف العليا كالتذكر والتعلم، واليوم ونحن في مستهل قرن جديد يبشر بغزو المجال الفكري واكتشاف إمكانات المخ في التوجيه الفطري تفاجئنا تلك الأبحاث العلمية باكتشاف يجعل الإيمان بالله تعالى وعبادته نزوعًا فطريًا وملكةً مغروسة بالمخ لها آلياتها ومراكزها، وإذا لم يحسن الإنسان توظيفها فقد أهم ما يميزه عن الحيوان وتعرض لفقدان التوازن النفسي والبدني.

وخلاصة الأبحاث التي أجريت على المخّ بتقنية جديدة لأشعة إكس ونشرت عام ٢٠٠١م، وقام بها فريق علمي على رأس البروفيسور أندرو نيوبيرج(١) أستاذ علم الأشعة Radiology بكلية الطب بجامعة بنسلفانيا في فلادلفيا بالولايات المتحدة الأمريكية هي أن "الإيمان بالله مقصد مصمم داخليًا Built-in Design في المخ"، وبهذا لا يمكن لأحد التخلص منه إلا تعاميًا عن الفطرة السوية التي جعلت الإنسان ينزع للتدين على طول التاريخ وتعطيلًا لقدرات هائلة وإمكانات بالغة التعقيد والتطور تمكنه من العلم بالله بالاستقراء والتفكر والتحليل والاستنتاج.

---

(١) انظر موقعه على الانترنت: http://www.andrewnewberg.com/default.asp

ولمزيد من الاطلاع حول هذا الموضوع الذي كُتبت عنه مئات الصفحات على الإنترنت انظر مثلاً:

http://www.thenarrow.org/archives/2005/01/report_children.html

http://dir.salon.com/books/feature/2001/02/01/god_part/index.html

وكما أعلن البروفيسور نيوبيرج بأنه يمكن وصف الإنسان بأنه "مجبول على التدين Hard-wired for religion" وأن "التجربة العملية لا يمكنها أن تخبرنا بطريقة مباشرة عن ذات الله ولكنها تخبرنا كيف أعد الله الإنسان لكي يعرفه"، وهي تخبرنا أن "عبادة الله ووظيفة والإيمان به مطلب طبيعي يماثل الطعام والشراب"، و"المخ البشري ليس معدًا تشريحيًا ووظيفيًا فحسب للإيمان بالله وعبادته وإنما هو أيضًا مهيأ عند قيامه بوظيفة العبادة لحفظ سلامة النفس والبدن بتوجيه العمليات الحيوية خلال منظومة عصبية وهورمونية متشابكة".

يقول البروفيسور بليتريني من جامعة بيزا في إيطاليا: « إن كل شيء نفعله أو نستشعره من نشاط بسيط كحركة إصبع إلى أعمق الانفعالات العاطفية الخبيئة بالنفس أو البادية مثل الغضب والحب يرسم خريطة مميزة المعالم للمراكز المتأثرة بالمخ ويصاحب كل شعور نموذج محدد يمكن تسجيله وتحليله كالتحاليل الطبية العضوية تمامًا »، وهذا المجال الجديد لاستطلاع دخيلة الإنسان من عواطف ومشاعر وأفكار ومدى تأثره بالاعتقاد الديني يدخل فيه الباحثون اليوم بحذر حريصين على المنهج العلمي في البحث والتحليل كبقية مجالات العلوم التجريبية.

ويقول البروفيسور "مايكل ماكلوف" من جامعة دالاس بالولايات المتحدة الأمريكية: « يتأثر الوجدان النفسي-الروحي بالعالم الخارجي ويؤثر في الجسد العضوي ويمثل الإيمان والعبادات صمام أمان لتلك التأثيرات الطبيعية »، وقد أفضت دراسته إلى أن الطبيعة البشرية مصممة بحيث تحفظها العبادات في توازن تام وتقيها الاضطراب، وفي تحليل شمل ٤٢ دراسة ميدانية واسعة وجد بروفيسور ماكلوف أن « معدل الوفيات يقل بالاستغراق في الصلاة وبقية العبادات، وهذا التأثير مستقل عن عوامل أخرى مضرة بالصحة كتناول الخمور والتدخين »، ولم يفت البروفيسور نيوبيرج أن يعلق على تلك النتيجة بقوله: « نحن لا ندري حتى الآن على وجه اليقين كيف يؤدي الإيمان العميق والاستغراق في العبادة إلى الحفاظ على سلامة النفس والبدن ومكافحة المرض وتأخير الموت، ولكن معرفتنا لآليات عمل الجسم وخاصة المخ تؤهلنا لتلمس آفاق جديدة من البحث لنثبت بحياد يوما ما وجود

تأثيرات عضوية للإيمان والعبادة، وندرك منها اليوم الحفاظ على معدل طبيعي لضربات القلب وضغط الدم وتغير الهورمونات كمًّا ونوعًا والميل العصبي لتحقيق حالة من الهدوء نتيجة الخشوع.

وإذا كان البروفيسور نيوبيرج يقرر بأنه لا يدري كيف يؤدي الإيمان العميق إلى الحفاظ على سلامة النفس والبدن.

فإننا نحن أهل الإسلام ندرك إدراكًا يقينيًا السبيل إلى الطمأنينة والاستقرار النفسي- والبدني، إذا لم تتبدل فطرتنا وسرنا وفق ما أمرنا به خالقنا وفاطرنا ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ ۝٢٨﴾ [الرعد:٢٨].

وقال تعالى: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي صَلَاتِهِمۡ خَٰشِعُونَ ۝٢﴾ [المؤمنون:١-٢].

وفي الحديث قول النبي ﷺ: «يا بلال أرحنا بالصلاة» (١).

* * *

---

(١) مسند أحمد: (٥/ ٣٦٤، ٣٧١).

الخاتمة

أُجمل في هذه الخاتمة أهم ما توصّلت إليه من نتائج:

١) أن الفطرة في اللغة لها معانٍ عديدة، كالشق والخلقة والابتداء والاختراع وغيرها.

٢) أن العلماء اختلفوا في بيان معنى الفطرة إلى عدة أقوال، بيد أن الذي عليه أكثر السلف وجماهير العلماء هو تفسيرها بالإسلام.

٣) أنه ليس المراد بالقول أن المولود يولد على فطرة الإسلام: أنه يولد وهو يعلم هذا الدين ويريده، ولكن المراد أن فطرة المولود تستلزم الإقرار بالخالق ومحبته، وموجبات الفطرة ومقتضياتها تحصل شيئًا بعد شيء بحسب كمال الفطرة إذا سلمت من المعارض.

٤) أن في نصوص الكتاب والسنة غنية بالأدلة العقلية اليقينية على أصول الاعتقاد، خلافًا لمن زعم أنها مجرد أدلة سمعية تحتاج إلى براهين خارجية.

٥) أن معرفة الله تعالى فطرية خلافًا للمتكلمين الذين يقررون بأنها نظرية.

٦) أن الأدلة القرآنية قد جلت المراد بحقيقة الفطرة موضحة لمعناها وجاءت السنة النبوية مكملة لهذا المعنى مؤكدة عليه.

٧) أن توجد أبحاث تجريبية يجريها علماء الغرب على المخ البشري تقرر أن الإيمان له مواضعه في المخ، وهذه الدراسات لا تزال نظريات ولعلّه يظهر لنا بعض ما كنا نجهله عن "المخ البشري" وما أوتيتم من العلم إلى قليلًا. والدلائل النقلية والعقلية والحسّية تؤكد لنا فطرية المعرفة من قبل هذه الدراسات الغربية.

وأوصي في ختام البحث:

1) الاعتماد على المنهج القرآني في ترسيخ الإيمان واليقين.

2) إبراز الأدلة القرآنية في مخاطبة العقول، فإنه ما من أصل من أصول الاعتقاد يمكن الاستدلال عليه عقلًا، إلا وفي النقل التنبيه على ذلك، علمه من علمه وجهله من جهله.

3) تنقية المناهج الدراسية مما علق بها من مسائل ودلائل المتكلمين والفلاسفة التي عطلت الفكر الإسلامي وأخرت المسلمين وأشغلتهم بالمسائل التي لا ينبني عليها علم نافع وعمل صالح.

4) المزيد من الدراسات المؤصلة التي تبرز عظمة وإعجاز القرآن التشريعي في مختلف المجالات، والملاحظ هو انشغال كثير من الباحثين بالإعجاز العلمي، وعدم إعطاء هذا المجال حقه الكافي من الدراسات.

5) دراسة "آية الميثاق" دراسة موضوعية مفصّلة تجمع أقوال المفسرين فيها، والروايات الحديثية وتمييز صحيحها من ضعيفها.

والله تعالى أعلم وأحكم والهادي إلى سواء السبيل

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

فهرس المراجع

أخذ الميثاق في قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمۡ﴾ : لعبدالعزيز بن عبدالرحمن العثيم، أضواء السلف، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ.

التحرير والتنوير: لمحمد الطاهر بن عاشور، الدار التونسية للنشر والتوزيع، تونس، ١٩٨٤م.

تفسير البغوي المسمى "جامع البيان في تأويل القرآن" : لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ.

تفسير القرآن العظيم: للحافظ أبو الفداء إسماعيل بن كثير، تحقيق: محمد إبراهيم البنا وآخرون، دار الشعب، القاهرة، نسخة دار ابن حزم، تحقيق محمد البنا، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ.

التفسير الكبير: لفخر الدين أبي بكر الرازي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الثالثة.

تفسير النسفي المسمى "مدارك التنزيل وحقائق التأويل" : للإمام أبي البركات عبدالله بن أحمد النسفي.

حاشية الشهاب المسماة "عناية القاضي وكفاية الراضي على تفسير البيضاوي"، دار صادر، بيروت.

درء تعارض العقل والنقل: لشيخ الإسلام أحمد بن عبدالحليم بن تيمية، تحقيقي محمد رشاد سالم، طبعة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الطبعة الأولى، ١٤٠١هـ.

دلائل التوحيد: للعلامة محمد جمال الدين القاسمي، تحقيق: خالد عبدالرحمن العك، دار النفائس، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ.

الدين: بحوث مهمة لدراسة تاريخ الأديان، محمد عبدالله دراز، دار القلم، الكويت، ١٤١٠هـ.

سلسلة الأحاديث الصحيحة: محمد ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف، الرياض، طبعة منقحة، ١٤١٥هـ.

شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل: للإمام شمس الدين محمد بن أبي بكر بن أيوب الدمشقي المعروف بابن قيم الجوزية، تحقيق: خالد السبع، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ.

فطرية المعرفة وموقف المتكلمين منها: لأحمد سعد حمدان، دار طيبة للنشر والتوزيع، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ.

كل مولود يولد على الفطرة: لتقي الدين أبي الحسن السبكي، تحقيق: محمد السيد أبو عمة، دار الصحابة للتراث، طنطا، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ.

المعرفة في الإسلام مصادرها ومجالاتها: عبدالله محمد القرني، دار عالم الفوائد، مكة المكرمة، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ.

* * *

فهرس الموضوعات

المقدمة ١

المطلب الأول: الفطرة في لغة العرب ٤

المطلب الثاني: أقوال علماء أهل السنة في معنى الفطرة. ٦

المطلب الثالث: حقيقة الفطرة من خلال الأدلة القرآنية ويشتمل على ستة أدلة ٩

الخاتمة ٣١

فهرس المراجع ٣٣

فهرس الموضوعات ٣٥

* * *